ولم تتم الولادة !

قصة بقلم أنور قريطي

« طبيب الماني توصل حديثا لتفريخ الاطفال آليا وحسب رغبة الزبائن ، سيبدأ الطبيب قريبا باقامة معمل تفريخ جاهزللعمل . المرجو من الراغبين في الحصول على معلومات أوفر الاتصال بالطبيب مباشرة ، على العنوان التالي : ... »

حدق مدهوشا في احرف الكتابة المنمنمة لثوان ثم لملم نفسه : اسند ظهره الى مسند السرير الحديدي ، مقربا الجريدة من عينيه ، وقرأ الاعلان من جديد .. خطر له انه جن ، وفي الحال تلبسه رعب عظيم . وليستوثق من الامر طفق يحملق بضراعة كلب جريح في الطاولة العتيقة بجواره لصق السرير ، في البطانية القذرة والكرسي المثقوب من الوسط والجدران الاسمنتية المرشوشة بالكلس . اخيرا توقفتعيناه عند النافذة . كانت مفتوحة ، ومن خلالها انسفحت نظرته لتذوب في الظلام المبقع باشباح بنايات بعيدة .

احس بانه مكشوف وعار ، وفي قلب الظلام ، عبر النافذة ، تراءى له رأس تيس بدون قرون ، يخرج له لسانا طويلا ، ويهزه كحبلمضفور. شعر بالسخونة تسري في جسده وان مفاصله تسيخ ... ثم امتلأ بالهلع ، ونسي ان النافذة تعريه ، عندما عاودته الفكرة بانه جن .

حاول ان يتذكر اسمه .. وامتلأ رأسه بالطنين : احمد صفوان ، سعاد ... حدس مرتبكا انه لم يعثر على اسمه ، بعد . ثم ترك التفتيش عن اسمه وشرع يفكر متحمسا بالاسم الاخير . تراءت له صور فتيات كثيرات ، متطاولات الرؤوس والعيون (كمن يشاهد شريطا سينمائيا من الاعلى) . اعمل فكره ولكنه لم يفلح في تمييز صاحبة الاسم فقال : « لا بد انها شوهاء ، مثل رأس التيس . » وارتفعت عيناه الى النافذة فوجد ان رأس التيس اختفى ، وانه لم يبق الا ظلام حاد ، يدخل بعضه في بعض . ثم ، فجأة ، لمع شيء ، ورأى كرة بيضاء متوسطة الحجمتدور وتدور بسرعة خارقة . ومع الكرة زاغت عيناه واخس بالدوار ، فاغمض عينيه ، ولكنه بقي يتابع ، من تحت جفونه ، مستسلما ومتعبا ، بالونات كبيرة ناصعة البياض ، متالقة ، تطير الى الاعلى متضخمة بالتدريج، ثم تنفقع بدون ان تحدث صوتا . وشعر بحنين ظليل ، غامض كصدى بعيد، يرفرف في صدره ، وهو يتذكر بالونا كبيرا ازرق اللون اشتراه له ابوه وهو في الخامسة .

ثم لمح وجه امه التي ماتت منذ زمان بعيد . جلدة وجهها الرقيقة مجعدة ومبرية ، وعيناها تطلان عليه من الاعلى ، متوهجتين بنور قوي وثر وحنون . ثم لمح اخته الصغيرة امل وقد عصبت شعرها الذهبي بشريطة وردية واحاطت عنقها بدقونة بيضاء ، تبدو في غاية النظافة تحت ثوبها المدرسي الازرق الجميل .

قال لنفسه : « اتمنى ان اعود طفلا ، بل انني طفل لا ازال . انا طفل صغير متعب .. لكنني اكذب ، فقد ماتت امي منذ زمان بعيد ، وابي طردني من البيت منذ خمس عشرة سنة .. اني اقترب من الكهولة فبعد قليل اكمل عامي الثلاثين » . جرب ان يتخيل كم تملأ ثلاثون عاما من فراغ الغرفة ، لو وضعت في كوم منتظمة ، الواحدة منها فوقالاخرى، واراحه انها جديرة ان تملأ الغرفة حتى السقف ، وتتركه فوق سريره يرزح تحت ثقلها ، عاجزا حتى عن تحريك يديه .

ثم دخل في روعه ان كفيه عجوزان ومتجعدان كجلد قديم .فسحب، وقد استولى عليه الخوف مرة اخرى ، يده اليمنى من فوق الطاولة الملاصقة للسرير الرخيص ، وفتح عينيه .. فرأى ان اصابعه النحيفةما زالت مطبقة على قدح فارغ ، تفوح منه بقوة رائحة اليانسون ، وان المصباح الكهربائي فوق رأسه يغرق الغرفة بالضياء ، وان النافذة التي خيل اليه انها مفتوحة كانت مغلقة كالعادة ، وقد تبلل زجاجها من الخارج بحبيبات المطر .

ارتاح جدا حينما ادرك انه كان يحلم ، طيلة الدقائق الاخيرة الرهيبة . ثم دار بعينيه في الغرفة متفحصا اثاثها المألوف جدا ، وقال: « لست مجنونا اذن ! لم تملكني الخوف كارنب ؟ وماذا لو جننتبالفعل؟ سيضعوني في مصحة . » ونبعت في ذهنه المضنى صورة شاحبة لمبنى عصري كبير بطابقين ، وحديقة خضراء جميلة تحوطه من كل الجهات ، وعلى الباب الرئيسي كتبت لافتة تقول : « مصح ابن سينا للامراض العقلية » .. وتذكر ان المجانين احرار في انتحال ما يشاؤون من شخصيات . قال : « ساختار ان اكون توفيق الحكيم . سامشي بوقار عظيم وانظر للمجانين باحتقار عميق واكتب مسرحية عظيمة في كل يوم. لا ، سيكون ذلك مملا وربما كان شاقا ، ساكتفي بكتابة مسرحية في كل اسبوع . ولكني نسيت ان توفيق الحكيم عجوز واني لا احبه . ساختار في الاسبوع التالي ان اكون بدر شاكر السياب . لا ، ان شكله غير جذاب ولن اروق لنزيلات المصح . اوه ! لقد نسيت انهم لا يسمحون بالاختلاط .. ابدا ! ستكون الحياة في المصح جحيما : انهم لا يسمحون للمجانين بالاختلاط بالمجنونات . لا اريد ان اجن . من قال اني اريد ؟ كنت امزح . ليس المزاح جريمة . انا عاقل ، عاقل جدا ولكني سكران، سكران حتى العظم . »

نظر الى ساعته شاعرا بصدره يضيق ، وبرغبة ساخنة متبلدة في ان يقوم عن السرير ويتمدد على بلاط الغرفة القذر وينام . قال : « بقي ساعة . قالت لي امي اني ولدت في الواحدة ليلا .. وسيدور العقرب الصغير الان ببطء حارق حتى يلتصق بعد ساعة بالرقمالمطلوب، وعندها اولد من جديد ، للمرة الثلاثين .. هذه المرة انا مصمم ان اولد من صحيح . ليس المهم ان تلدني امي .. ستمضي الساعة واولد . »

ثم ضحك ضحكة قوية متقطعة باردة وهو يتصور ولادته . كيف سيصيح ويناغي ، كأي طفل ينزل توا للحياة . كيف سيلف نفسهبشرشف السرير الابيض ويهز لنفسه حتى ينام . خطر له ان الاطفال الصغار لا يمشون ، فاحزنه ان يرى نفسه على السرير لا يستطيع حراكا . ثم اشتهى النوم مرة اخرى بكل جوارحه ، ولكنه رفض بعناد ان ينام وقال: « سامشي لاودع حياة الكهولة ، فلن استطيع بعد الان ولوقت طويل ان اسير على قدمي . »

قام مترنحا فاصطدم بالطاولة . وامتلأت الغرفة باصوات مبحوحة خشنة من احتكاك قوائم الطاولة بالارض ، تبعتها اصوات حادة لزجاج

يتكسر ، حين سقطت على البلاط ثلاث بطحات فارغة .

عندما مر بصالة الفندق ، في طريقه الى الشارع ، وجدها فارغة الا من « ارتيست » قبيحة المنظر واثنين او ثلاثة من نزلاء ، لا اهمية لهم ، وصبي الفندق النحيف كمسلة .

نظر اليه الصبي باستغراب عظيم ، وصاح فيه بعد قليل من التردد: « الى اين استاذ ؟ » ولكنه تابع السير بدون ان يلتفت اليه . ثم لما هبط الدرج الحلزوني الضيق وقف تحت رذاذ المطر امام باب الفندق وضحك ضحكة خافتة بتشف ، وصاح بصوت اجش : « قال استاذ ... قال ! » .

سار في الطريق المرصوفة بحجارة سوداء مربعة غير منتظمة، محاذرا ان يبتعد عن جدران الدكاكين المقفلة . بين الحين والحين كان يفرد سبابته ويمرها ، كما يفعل الاطفال ، على ابواب الحوانيت الصفيحية ، فيخرج صوت مفرقع ، متقطع ، يفرح له غاية الفرح .

بدأ رذاذ المطر يزداد كثافة مما بلل شعره المكشوف وثيابه. تملكه الغضب فجأة ، فرفع رأسه الى الاعلى وصاح : « كفى ! من يرشني بالماء البارد ؟! » وتاهت عيناه في السماء الحالكة . وتبدى له القمر قرصا ابيض شاحبا يركض تحت غيمة رقيقة كالغلالة . حبس انفاسه ينتظر خروج القمر من تحت الغيمة ، حتى اذا انقشعت وظهر له القمر منيرا، وديعا ، وقورا ، احس بشيء في ضلوعه ينجذب اليه . ثم استبدت به رغبة طاغية ان يلتصق بالقمر ، ان يصعد اليه ويعانقه ويقبله .

بدأ طرف القمر يسود ببطء . وبدا ، لبرهة ، كسن منخورة، ثم غطته الغيمة السوداء وطفت العتمة عليه . شعر بالحزن واللهفة العظيمة لرؤيته من جديد ، فجلس القرفصاء على طرف الرصيف ، مظللا عينيه من الرذاذ بكفيه وحابسا انفاسه ، ينتظر انقشاع الغيمة وظهور القمر.

على الطرف الاخر من الرصيف ، كان حارس ليلي هرم ، يسير ببطء متأففا من المطر الخفيف . حتى اذا وقع بصره على عصام، اقترب منه ، وسأله باستغراب :

ـ ماذا تفعل هنا ؟!

ـ . . . . . .

كان عصام ما زال يتابع قمره .

ـ اقول لك : ماذا تفعل هنا ؟

بدون ان ينزع نظره عن السماء ، قال له :

ـ وما شأنك انت ؟

ـ انا الحارس الليلي في هذه المنطقة ، ايها الابله . اليس لك بيت؟

ـ بيت ! لا ، انا اسكن في فندق .

ـ لم لا تختبىء في فندقك ، اذا ؟

ـ وما دخلك انت ، ايها السمج ؟ اني انتظر القمر .

ـ تنتظر القمر !! اه ، فهمت . اذا كان الامر هكذا ، فقم معي الى المخفر ننتظر معا .

ـ ابتعد عني . دعني ، ايها الحارس .

ـ وما شأن المخفر ؟ لن يزوره القمر ابـــدا ، ايها الاحمق ، ابتعد عني .. .

ـ الوقت متأخر والناس نيام : لا تعمل ضجة ، والا اقتدتك بالعنف.

ـ الوقت . يا الهي ! لقد نسيت الوقت !

ونظر الى ساعته بعصبية ، فوجد ان الوقت قد جاوز الواحدة ، فاستسلم للحارس يقوده الى المخفر وهو يقول بغيظ وخيبة امل مريرة: « اه ، لقد فاتني الوقت ، هذا القمر المخادع وانت .. لشد ما أكرهكما .. سانتظر عاما اخر حتى اولد من جديد ! »

اعزاز ـ سوريا

انور قريطي

رحيل الى الأبد

***

الليل رمل واغتراب
وعلى الحدود ، يمرغ الريح التراب
ودمي ، على الاسوار منسفك ... واعصابي يباب
ماذا ستفعل ايها النجم المسافر حين يمسحك السحاب؟
ماذا ستفعل ؟ أن دنيانا تمر بلا علامه
وعلى الصواري ، والنوافذ ، يرسم البحر ابتسامه
مذبوحة الالوان ... تغرس ملحها في كل قلب
وانا انقب في زوايا الروح ... عن ذكرى لحبي
ماذا ستفعل ايها التابوت !! ضمت بلا عيون
ومررت دون مشيعين ، **مررت دوني**
يا حبي المهجور ، يا عرس الجداول والضفاف.
اني احسك قطرة تروي جفافي
وتمر فوق شفاهي العطشى ، فتمنحها رواء
وتشع حول شراعي النائي ، فتغمره صفاء

***

الليل غابات من العربات ، والغد اصفر الاحداق
منسيا ببيتي
ـ لا تنتظر خلف الستائر يا حبيبي ...
... ليت نجما يفتح الدنيا لصوتي.
لا شيء مما كنت تهواه سوى تابوت صمتي
ومررت انت مع الخريف
شبحا غريبا فاته درب القطار
لم يبق حتى ـ في يديك ـ دخانه ... وبلا انتظار
غرقت حقائبك الصغيرة ، في الضباب بلا ابتسامه

***

ماذا ستفعل ايها المهجور لو مرت امام الدار مره
حورية كالريح ... لم تترك لوجهك ...
بعض نظره ؟!

البصرة

خالد الخشان